

مصر ليست (سوقاً) لبيع المبادئ أما العراق ففيه (سوء) لفهم المبادئ!

الأهرام: 12-11-78

بقلم: د. محمد اسماعيل على

مدرس القانون العام - جامعة الأزهر

إن مصر أكتوبر قادرة دائماً على أن تعزل غيرها دون أن تنعزل عن أهدافها.
إن مصر أكتوبر ردت لهم كرامتهم وهم منعزلون عن ساحة الكرامة..
إن مصر أكتوبر ردت لهم كيان الوجود وهم معزولون عن كل وجود.
لقد تضخمت كثير من الخزائن بحصاد أرواح أبنائنا.

بهذه الكلمات الموجزة ، والمؤثرة ، استطاع الرئيس محمد أنور السادات أن يلخص الموقف العربي لا منذ أكتوبر 73 فحسب ، ولكن منذ يونيو 1967 ، وكانت هذه الكلمات الدورية ، أمام ممثلى الشعب يوم 4 نوفمبر تعبيراً صادقاً عن كل الأحاسيس التى ملأت قلوب المصريين من أبناء الأمة العربية ، منذ بدأ الصراع المسلح بين إسرائيل والعرب ..

لقد ظن المؤتمرون فى بغداد -خطأ- أن أربعة آلاف مليون دولار سنوياً لمصر لمدة عشر سنوات هو مبلغ ضخم سوف يسيل له لعاب المصريين ، فيخرجون من نطاق السلام إلى نطاق الكلام!!.

وكان ظن المؤتمرين صادراً فى الأساس عن سوء تقدير سياسى من جهة وسوء فهم قومى من جهة أخرى ، فأصيبت صفقتهم بالفشل الذريع!!.

وينبع سوء التقدير السياسى من انهم يظنون أن من السهل على دولة تحترم نفسها وتقى بالتزاماتها الدولية ، أن تضرب بكل ذلك عرض الحائط إذا ما عرض عليها مبلغ من المال .. لكن مصر بعراقتها الأصيلة ، وحضارتها الثليدة ، ومركزها الدولى الموثوق به ، لا يمكن أن تتبع كل ذلك بأربعين ألف مليون دولار لأن العراقة والحضارة والثقة الدولية لا توزن بالدينار أو بالريال أو الدرهم!!.

• ويتبع سوء التقدير السياسى كذلك ، من أنهم يظنون أن مسيرة السلام المصرية، هى هروب من الأعباء، وهى تخفف من المهام، وهى فرار من الإنفاق.. أو هى فى كل المعانى - لديهم- نتيجة للمتاعب الاقتصادية... ولكنهم لم يستطيعوا أن يغرقوا بين السلام والاستسلام، ولم يستطيعوا أن يدركوا الأبعاد الحقيقية لحرب أكتوبر، فقبلها لم تكن مصر فى مركز يسمح لها بالتفاوض مع إسرائيل وهى تجثم على حواف مدن القناة، تفاوض وتناور بتهديد الاحتلال.. أما بعد ضرب الصلف الإسرائيلي فى الصميم، وكبح جماح الغرور الصهيونى وأصابه نظرية الأمن الإسرائيلى القائمة على التوسع، فإن مصر أكتوبر ، المنتصرة، والمزهوة بانتصارها ، تستطيع أن تفاوض على السلام فى مفاوضات الند للند، لا مفاوضات المهزوم مع المنتصر ومن أجل ذلك كانت مثيرة السلام المصرية فى أعقاب نصر أكتوبر، ابتداءً من اتفاقيات فض الاشتباك حتى كامب ديفيد، تجرى فى إطار الرغبة فى السلام، لا فى إطار الوقوع فى الاستسلام.

• أما سوء التقدير القومى فنبع من أنهم لا يدركون دور مصر الرائد فى مسيرة الوحدة العربية، فهى توجه، ولا توجه، ونقود ولا تقاد، وتحمل على أكتافها دائماً، مصير الأمة العربية، لذلك كان الأول بهم أن يتضامنوا مع مصر، ويؤازروها فى خطواتها حتى يزداد ثقلها، وحتى يزداد كسبها لصالح الأمة العربية أكثر فأكثر، فى تحاورها مع المفاوضات الإسرائيلى . ولكنهم تركوها تفاوض، وأطلقوا عليها النار من كل اتجاه يريدون أن يقتلوها، لكنها استمرت صامدة، تدافع عن سيادتها فى سيناء وتدافع عن حقوق الفلسطينيين.

وكذلك يتبع سوء التقدير القومى من أنهم إذا كانوا قد اختلفوا مع مصر فى منهاجها السلمى، فليس معنى ذلك أن يملئوا الدنيا صراخاً دون أن يفعلوا هم شيئاً لهذه المشكلة المعقدة ..

وهل ينكر المؤتمرون فى بغداد أن عناصر القوة لديهم - ومنذ أكثر من عشر سنوات- كانت تستطيع، أن تحقق للأمة العربية كل أمانيتها!!.

آلاف البلايين من الدولارات البترولية ، كانت تملأ البنوك الأجنبية، وتشتري القصور فى لندن ونيويورك، واليخوت الخاصة والطائرات الخاصة وتزيد الاقتصاد الغربى المتضامن مع إسرائيل قوة ونشاطاً وتزيد الاقتصاد المصرى وهنا على وهن!!،

إن الفترة الزمنية من يونيو 67 حتى نوفمبر 77، كانت كفيلاً بتحويل مصر إلى دولة عظمى، تستطيع أن تحاور بالسلام وبالسلاح، بقوة أبنائها وشقيقاتها، لو أن (التضامن العربى) كحد أدنى من الوحدة العربية قد أثمر ينعه فى وقوفه إلى جانب مصر.. ولكن..

أين كان الأربعون ألف مليون دولار يوم أهينت كرامة العرب فى 5 يونيو!؟.

أين كان المال العربى.. والتضامن العربى!؟.

وأين كان الأربعون ألف مليون دولار يوم يؤس عبد الناصر من مباطلة الروس فى مدة بالأسلحة الهجومية أو الدفاعية..؟! وطائرات إسرائيل تلقى سمومها وحقدتها على بحر البقر وأبى زعبل!؟.

أين كان المال العربى والتعاون والتضامن العربى!؟.

وأين كان الأربعون ألف مليون دولار، يوم منع الروس توريد السلاح (التعويضى) فى حرب أكتوبر، ليتركوا مصر فريسة فى حرب ضروس، ويجردوها من السلاح، بعد أن أدركوا من مصر سوف تنتصر، وأن الصراع الإسرائيلى العربى سينتهى... أين كان المال العربى.. والتضامن العربى!؟.

يبدو أن (أحد) قد أقنعهم بأن فى مصر (سوقاً) لبيع المبادئ!! وإنهم اقتنعوا بوجود هذه (السوق) فأرسلوا وفداً فى 4 نوفمبر 1978، لشراء مصر بمبلغ 40 ألف مليون دولار على عشر أقساط، كل قسط 4 آلاف مليون دولار، لتتحول إلى حسان عربى يمتطونه فى الاحتفالات..!! .

ولكن ابن مصر البار أنور السادات أقنعهم أن فى العراق (سوءاً) لفهم المبادئ.. لأن إرادة مصر لا تشتري ببيلايين العالم.. ولأن مصر هى التى ردت لهم كرامتهم وهم معزولون عن ساحة الكرامة.... ولأن مصر هى التى ردت لهم كيان الوجود وهم معزولون عن كل وجود.... ففشلت الصفقة ونجحت الصفعة!!.